المشاركة في الملتقى الوطني الأول: الأمير عبد القادر الجزائري و الانفتاح الفكري و الادبي المنظم من طرف كلية الآداب و الحضارة الإسلامية،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة ،يومي: 27 و28 فيفري 2024

عنوان المداخلة : صورة الأمير عبد القادر الجزائري في رواية "الطوفان "لعبد الملك مرتاض

إعداد: الدكتورة إيمان برقلاح

البريد الإلكتروني:imenberguellah2020@gmail.com

الجامعة الأصلية: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

ملخص:

يتمتع الأمير عبد القادر الجزائري بمكانة جد سامقة في تاريخ الجزائر الحديث،بما كان يتميز به من حسّ استراتيجي كقائد عسكري كبير ،و مفكر نبيل ،و شاعر ملهم، كل هذه الصفات أهّلته ليبرز على الساحة العسكرية و السياسية و حتى الدينية و الأدبية ،فسعى العديد من الروائيين إلى توظيف هذه الشخصية الفذة في أعمالهم الروائية باعتبارها موقفا فاعلا و نموذجا مكتملا للجزائري البطل.

في ضوء ما تقدم تسعى هذه الورقة البحثية لاستجلاء صورة الأمير عبد القادر الجزائري في رواية "الطوفان" لعبد الملك مرتاض ،واستنطاق مكامنها.

الكلمات المفتاحية: الصورة، الأمير عبد القادر، رواية الطوفان.

Abstract:

El-Amir Abd Elkader Aljazairi enjoyed a very high position in the modern history of Algeria, as he was distinguished by his strategic sense as a great military commander, a noble thinker, and an inspiring poet. All of these qualities qualified him to stand out on the military, political, and even religious and literary scene. Many novelists have used this unique character in their novels as an effective stance and a complete model for the heroic Algerian.

In light of the above, this research paper seeks to clarify the image of El-Amir Abd Elkader Al Jazairi in the novel "**Salvation**" by Abd El Malik Murtadh, and to interrogate its hidden meanings.

Keywords: the image, El-Amir Abd Elkader, the novel of **salvation**.

مقدمة:

تعد الرواية أحد الأجناس الأدبية الحديثة، التي وفدت إلى عالمنا العربي في مطلع القرن التاسع عشر من أوروبا، وقد تبناها الكثير من أدباء العرب، وأنتجوا العديد من الروايات التي عبرت بشكل واضح وجلي عن الواقع العربي، ليؤكد الأديب العربي قدرته على الإبداع في ابتكار الصور الجديدة والخيالات الخلاقة، وتوظيف اللغة العربية في الكتابة الروائية توظيفا فنيا، وشاعريا، حتى أضحى هذا العصر عصر الرواية.

وتعتبر الرواية التاريخية من أهم الاتجاهات لأنها تتعلق بالماضي التاريخي والتراث الحضاري للأمة العربية والإسلامية، الأمر الذي يتصل بهوية الأمة اتصالا مباشرا، ويعبر عن أصالتها وعراقتها.

و قد حققت الرواية الجزائرية نجاحا باهرا في هذا المجال ،حيث اختارت الاهتمام بالمضمون و استقاءه من عمق المجتمع الجزائري ،ويعتبر عبد الملك مرتاض من أبرز الروائيين الذين وظفوا الرواية التاريخية في كتاباتهم من خلال استثمار الأحداث التاريخية الواقعية ببراعة فنية، فصوّر بطولات الأجداد الأوّلين في مواجهة الاستعمار الفرنسي الغاشم، ومن أهم رواياته التي احتفت بذلك رواية "الطوفان" ،التي أبرز فيها صورة الأمير عبد القادر بمختلف تمثلاتها ،و قبل تفصيلنا في ذلك ،يجب علينا أوّلا تبيان مفهوم الصورة .

1-مفهوم الصورة:

أ-لغة:

جاء لفظ الصورة في القرآن الكريم تعني في مجملها شكل الإنسان وكل المخلوقات والموجودات التي خلقها الله تعالى وأحسن تصويرها يقول الله تعالى:﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾[1]، ويقول ايضاً:﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[2]

وفي الحديث النبوي الشريف: " أتاني اللَّيلةَ ربِّي تبارَكَ وتعالى في أحسَنِ صورةٍ "[3]، يعني الحديث النبوي أي أتاني ربي وأنا في أحسن صورة.

---

[1] سورة غافر، الآية: 64.

[2] سورة الانفطار، الآية 7.

كما ورد اللفظ في الكثير من المعاجم اللغوية بمفاهيم كثيرة، من بين هذه المعاجم ما يلي:

جاء في لسان العرب: " الصورة الشكل، "جمع صور وصُور وصور فتصوّر وتصوّرت الشيء: توهمّت صورته فتصور لي، والتصاوير: التماثيل"[4] .

و في المعجم الوسيط: صوره: جعل له صورة مجسمة، وصور الشيء أو الشخص، رسمه على الورق أو الحائط، والتصوير: نقش صورة الأشياء أو الأشخاص على لوح أو حائط[5].

أما تاج العروس: الصُورة (بالضم): "الشكل والهيئة والحقيقة والصفة والصورة: التماثل"[6]، وقال الجوهري: " والصور بكسر الصاد لغة في الصور، وصورة الله صورة حسنة فتصور "[7]، أي من ناحية الشكل، ويعرفها الراغب الأصفهاني بقوله: " الصورة ما ينقش بيه الأعيان ويتميز بها غيرها وذلك ضربان: أحدهما محسوس، تدركه الخاصة والعامة، بل يدركه الإنسان وشير من الحيوان، كصورة الإنسان والفرس والحمار. والثاني معقول تدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص بها الإنسان من العقل والرؤية، والمعاني التي خص بها شيء بشيء فصورة الشجرة شكلها، وصورة المعنى لفظة، وصورة الفكرة صياغتها"[8].

كذلك نجد في المعجم المفصل في الأدب لمحمد التونجي: " الصَّورَة هِي الشَّبِيهُ والمِثل، وهِي التَّي تقَابل المِادة لأن الصُّورة إمَا تَخيلُ نفسِي يتخَيله الأديبُ في كتَابَاته، وهِي في كِليهما تَعكس المِلامح الأصْلية كُلا أو بعضًا"[9].

مما سبق نخلص إلى أنّ الصورة تعني الشكل، وما تجسد من معان في الذهن وهو المعنى الأقرب من معاني الصورة ،وهي تكتسي طابعا ذهنيا لا حسيا.

---

[3] سنن الترميذي (أبو عيسى محمد بن عيسى الترميذي السلمي): أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط2، 1979م، ص336

[4] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر للنشر والتوزيع، مج 67، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص304.

[5] شوقي ضيف (شعبان عبد العاطي عطية/احمد خامد حسين): المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط5، 2001م، ص548.

[6] الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني الواسطي): تاج العروس، المطبعة الخيرية، مصر، ط1، 1988م، ص91.

[7] الجوهري (إسماعيل بن حمادة): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ت.احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان ط2 1987م، ص717. (مادة الصورة).

[8] الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرأن، دار المعرفة، بيروت، لبنان ط1 1992م – ص63.

[9] محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413-1993، ج2، ص 591.

ب–اصطلاحا:

توسع الدارسون في بيان معنى الصورة بما أنها هيمنت على جميع الاتجاهات الفنية والمعرفية، وقد عرفت إنتاج مفاهيم عديدة وجديدة، إثر التحولات التي شهدتها الإنسانية فأسهمت في إثراء الأنشطة الثقافية والقيم والمعاني الجمالية فحظيت الصورة في مفهومها الاصطلاحي بمكانة كبيرة، وإجمالا تطلق الصورة على معان عدة منها:

الصورة "إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق عن المقارنة وإنما تنبثق من الجمع بين حقيقتين واقعتين بعيدتنين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل"[10]، أي أنها إبداع يعتمد على الخيال والعقل وحده هو الذي يدرك علاقتها فهي تنقل إحساس الفنان تجاه الأشياء، انفعاله بها.

إنّ" الصورة ليست تكوينا متحققا خارج بنية النص ومكوناته بما فيه البنية الذهنية، بل هي وجود ممتزج عضويا بالفقرة والمشهد والمقطوعة والحوار والحوادث والفضاء والشخصية والموضوع، وكذا بالانطباعين الذهني والنفسي اللذين يثيرهما ذلك المجموع في المتلقي"[11]؛أي أنها تتألف من سلسلة مترابطة الحلقات وكل ترابط هنا ما هو إلا الصورة.

وذهب محمد غنيمي هلال إلى اعتبار الصورة: " جزء من التجربة، ويجب أن تتآزر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلا صادقا فنيا وواقعيا، وهذا قدر مشترك بين المذاهب الأدبية الحديثة"[12]؛ وهكذا تعتبر الصورة من أهم عوامل الإيحاء.

ويضيف غنيمي هلال: " أن الصورة إما تكون بصرية، أو لها غاية وتحمل وسائط أو مفردات أو رموز مبعرة، يمكن إدراكها أو فهمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أو تكون متخيلة، يقوم الخيال بتشكيلها وتكوينها من مكونات الذاكرة الخاصة بالخبرات الماضية، أو تكون ذهنية وتتصل في الانطباعات الذاتية التي تتكون لدى الأفراد أو الجماعات إزاء شخص معين أو نظام أو مؤسسة ما، بحيث يكون لها تأثير على حياة الإنسان " [13].

---

[10] مجدي وهبة: معجم المصطلحات العربية في اللغة العربية، مكتبة لبنان بيروت، لبنان /1974م. ص45.

[11] مصطفى التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413_1993، ج2، ص591.

[12] محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، د ط، 1997، ص417.

[13] المرجع نفسه، ص70.

أي أنّ الصورة لها دلالات معبرة تكون المفردات فيها مشفرة تفهم بطريقة غير مباشرة أو مفردات بسيطة تفهم بطريقة مباشرة، أو تكون من نسج الخيال، وقد تكون صورة ذهنية تعبر عن نظام أو شخص معين وبهذا تكون هادفة ولها غاية.

2-صورة الأمير عبد القادر في رواية "الطوفان":

أ-صورة الأمير القائد:

الأمير عبد القادر من المقاومين الأشاوس الذين دافعوا عن الجزائر في حقبة الاستعمار الفرنسي الغاشم بايعه الجزائريون قائدا لهم بعد أن ضاقوا ذرعا من الممارسات الهمجية للقوات الاستعمارية ،فتوجهوا من كل حدب و صوب لمبايعة الأمير عبد القادر ابن الشيخ محي الدين ،و قد فصّل عبد الملك مرتاض في روايته الطوفان الحديث عن البيعة ،قائلا: "بايَعَ الأميرَ علماءُ وأعيانٌ وأشرافٌ وقبائلُ شتّى، على الرغم من أنّ مؤرّخي الكائن الغريب العنيدِ الذي جاء من وراء البحر عادِياً، يزعمون في كتاباتهم، وما يزعمون إلاّ مَيْناً وباطلاً، أنْ لم يبايعْهُ من أهل المحروسة المحميّة البيضاء إلاّ «بضعُ قبائلَ وهرانيّة»! ها قد أصبح عبد القادر الفتى أميراً للمؤمنين، قائداً للدولة الوطنيّة الحديثة، فضرب العُملة باسمه، وأسّس مصنعاً للأسلحة، ونظّم الإدارة تنظيماً عصريّاً دقيقاً ممّا جعل مؤرّخي الكائن الغريبِ العنيدِ يُقِرّون بأنّ الأميرَ كان تحت سلطانه من الأرَضِينَ أكثرُ من ثُلُثَيِ المساحة الوطنيّة. وهذا يتناقض مع ما ادّعَوْه، مِن قبلُ، بِأنْ لم يبايعْهُ إلاّ قبائلُ محليّة محدود عددُها"[14].

إن صورة الأمير عبد القادر في أعين الجزائريين لم تكن صورة عادية ،وهذا ما أكدته زوجته التي سماها مرتاض في روايته أم البنين قائلة:"وحين اختارك أهل المحروسة المحميّة البيضاء لتكونَ لهم قائداً وأميراً، لم يختاروك لذلك سُدىً. فأنت أهلٌ لهذا المقام"[15]. و لهذا اتحدوا جميعا لمبايعته، لتوفر ميزات لا تكون إلا في قائد صنديد قائد اتسم بحنكته السياسية و العسكرية التي أضاقت المحتل طعم الخسارة في أكثر من معركة،و بهذا كان للجزائريين أمير يرعى شؤونهم ،و قائد يقوم مقاومتهم،فتأسست لأوّل مرة الدولة الجزائرية الحديثة بكل مقوماتها.

ب-صورة الأمير الشجاع:

يورد عبد الملك مرتاض في رواية الطوفان صورة الأمير الشجاع الذي لا يهاب الموت و لا يخاف العدو فقد كان رمزا للبطولة و الشجاعة و الإقدام،تقول أم البنين: "فما أكثرَ ما دوّخت جيوش الكائن الغريب العنيد

---

[14] الرواية،ص 364.

[15] الرواية،ص 367.

فهزمتها في خنق النطاح الأولى والأخرى، وهزمتها في معركة المقطع، وهزمتها في معركة تافنة، وفي معركة تلمسانَ يوم حرّرتها، وفي معاركَ كثيرةٍ أخرى، فعقَد معي المعاهدةَ تِلْوَ المعاهدةِ الْتِماساً للسّلام. .. وأقمت الأمْن في الجزء الأكبر من أرض المحروسة المحميّة البيضاء. لم يَبْقَ للكائن الغريب العنيد من البلاد إلاّ الشريطُ الشماليّ الضيّق الذي كان سيفِرّ منه عن طريق البحر إلى بلاد الجبال البيضاء إذا أفلحتُ في تضييق الخناق عليه"[16].

يظهر الأمير عبد القادر من خلال ما سبق في صورة الشجاع البطل المتعطش لقتال العدو ،فرغم الوسائل الحربية البسيطة التي يملكها جيشه مقارنة مع ما يملكه الجيش الفرنسي من كثر عدد و قوة عتاد إلا أنه كبّده خسائر كبيرة في العدة و الأرواح .فمرتاض بهذه الصورة يؤكد أن الجزائري المقدام لا يرضخ أبدا لتهديدات العدو وأنه سيحارب بكل ما أوتي من قوة في سبيل استرداد حريته المسلوبة.

ج–صورة الأمير الزوج:

لم يكن الأمير عبد القادر قائدا ناجحا فقط ،بل كان زوجا حنونا ،يقدس الحياة الزوجية ،رغم كثرة انشغالاته،" ولَمّا تمّت للأمير البيعةُ العامّة الثانية، كان لا بُدَّ عليه مِن أن يبدّد شيئاً من ضبابيّة العَلاقة الزوجيّة بينه وبين أمّ البنين، السيّدةِ الأولى في المحروسة المحميّة البيضاء... دخل عليها الأميرُ، وهو لا يعدَم تردُّداً وتحفُّزاً معاً. استقبلتْه أمّ البنين بابتسامةِ سعادةٍ لم يعهَدْها منها سلَفاً، فهنّأتْهُ بالإمارة وأطلقتْ زغرودةً دوّتْ لها أرجاءُ مدينةِ أمّ العساكر الخضراء، تعبيراً عن سعادة قلبِها وابتهاجاً. وبعد أن شكرها الأمير على طُفُوح عواطفها، وفيَضانِ وِجْدانِها، قال لها في شبْه استحياء:

«إن أردتِ أن تبقَيْ معي، من غير الْتفاتٍ إلى طلب حقّ، فلك ذلك؛ وإن أبَيتِ إلاّ أن تطلبي حقّكِ فأمرُكِ بيدك، لأنّي قد تحمّلتُ ما يشغلني عنك»."[17]

إن الأمير عبد القادر لم يكن من الأزواج الأنانيين الذين يفضلون أنفسهم على زوجاتهم،أو الذين يسلبونهم حقوقهم ،بل كان زوجا حنونا ،خائفا على مشاعر زوجته التي يكّن لها كل حبّ و احترام،لذا أراد أن يعطيها حريتها حتى لا يظلمها معه ، ولا تحس يوما بأنه مهمل لها ،أو زاهد عنها،فهو لم يعد ملكا لها و لأبنائه فقط ،بل أصبح ملكا للجزائريين كافة.

---

[16] الرواية ،ص 399.

[17] الرواية ،ص 365.

لكن أم البنين كانت هي الأخرى زوجة صالحة متفهمة محبة ،تفدي رفيق دربها بحياتها ،تؤازره في السراء و الضراء،فتكون له خير رفيق ،و هذا ما أكدته في هذا المقطع :" فابسُطْ يدك الكريمةَ أُبايعْك على السّرّاء والضّراء، وعلى الطاعة والوفاء، ما حييتُ، فأكونَ لك نِعْمتِ النصيرةُ، ونِعمتِ الحليلةُ، ونعمتِ الصاحبةُ والرفيقةُ أيضاً... ألاَ لا تَحْمِلَنَّ همّاً من أجلي، ولا تَهِيدَنَّ نفسَك في سبيلي، ولا تَكْرُبْها كَرْباً، فما أنا إلاّ عقيلةُ أميرٍ هُمَامٍ ما له، لَها، وما عليه، عليها. فأنا أتفهّم ما هو متوقَّعٌ من مشاغلك الكبرى، وهمومِك الباهظة التي تنتظرك في تدبير شؤون الدولة، وفي ساحِ الوغى خصوصاً. مستقبَلاً"[18].

بعد ما أنهت أم البنين كلامها،عقّب الأمير عبد القادر قائلا:" يا أمّ البنين! يا مَن أحببتُها وعشِقتُها واحترمتُها وأُعْجبتُ بها... أَتُرَيْن أنّي سأكون قادراً على الاستغناء عن حصافة رأيك، ورزانة عقلك، في حياتي هذه الجديدة؟ بل سأطلُب إليكِ، وقد أبديتِ من العزم والحزم، والتأهّب للتضحية بكلّ أنواعها، أن تكوني إلى جانبي رفيقاً، فإنّه لَيُسْعدني أن تتغنّيْ بانتصاري إذا انتصرت على العدوّ... أنتِ هي الشُّجاعةُ قبل أن أكونَ أنا شُجاعاً وأنت هي العظيمةُ قبل أن أكون أنا عظيماً "[19].

يحاول مرتاض هنا نقل صورة تصف في مجملها طبيعة الحياة الزوجية التي يحياها الأمير عبد القادر مع زوجته و حبيبته و أم أبنائه، فرغم كونه قائدا عظيما للدولة ،و مقاوما شرسا في المعارك إلا أنه يملك من الحنان و الوجدان و اللطف ما يجعل زوجته تهيم بحبه ،و تفديه بحياتها في سبيل نصرة قضيته العادلة.

كما يتأكد لنا أن رعاية الأمير عبد القادر لأسرته الصغيرة و حرصه على المحافظة عليها رغم الضغوطات الكثيرة المسلطة عليه ،دليل على حسن عنايته بأسرته الكبيرة المكونة من جلّ الجزائريين المحبين له ،و الذين أكدوا ذلك بمبايعته و تسليمه زمام السلطة و التسيير.

د–صورة الأمير الشاعر:

تعددت صور شخصية الأمير عبد القادر في رواية الطوفان ،ومن هذه الصور صورة الأمير الشاعر ،فهو الإنسانُ المتمدّن المرهَفُ الشعريّةِ، الطافحُ الوِجْدانِ، وقد أيقظتْ أمُّ البنينَ في الأمير عواطفَ جائشَةً، وإحساساً عارماً، وهو الشاعر الحسّاسُ، فارتجل أبياتاً أَمامها يخاطبُها بها، منها[20]:

---

[18] الرواية ،ص 366.

[19] الرواية ،ص 368.

[20] الرواية ،ص 369. عن محمد بن عبد القادر الجزائري، نُخبة عِقد الأجياد، في الصافنات الجياد.

تســـائـــــلني أمُّ البنيـــــنَ وإنّهـــا لأعْلَمُ مَنْ تحتَ السماءِ بأحـــوالي
ألم تعلمي يا ربّـــــةَ الخـــــدْر أنّني أُجلِّي هموم القوم في يوم تجـــــوالي
وأغشَى مَضيقَ المـــــــوتِ لا متهيّباً وأحمي نساء الحيّ في يوم تَهـــــوالِ
يَثِقْنَ النِّسا بي حيثُ ما كنت حاضراً ولا تَثِقَنْ في زوجِها ذاتُ خَلْخـــالِ
أميرٌ إذا ما كـــان جيشيَ مُقْبـــــلاً وموقِدُ نار الحرْبِ إذْ لم يكن، صالِي
إذا ما لقِيـــــتُ الخيـــــلَ إنّي لأَوَّلٌ وإنْ جال أصحـــابي، فإنّي لها تالي
أدافع عنهم ما يخافـــون مـــن رَدَى فيشكر كلُّ الخلقِ من حسن أفعالي

هذه أبيات قليلة مما نظمه الأمير عبد القادر الجزائري، "فمثلما كان محاربا و فارسا ومجاهدا ،و هو ما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء،فكذلك كان فارسا في نظم الشعر ،و هو ما يشهد به ديوانه الذي جمعه ابنه محمد و أطلق عليه اسم نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر "[21] ،و الذي ضمّ عددا من الأغراض الشعرية.

هـ- صورة الأمير المتصوف:

إن البيئة التي ترعرع فيها الأمير عبد القادر ،جعلته ينشأ "نشأة دينية مليئة بالورع ،و التقوى و الزهد،وكان من الطبيعي أن يتأثر بشيوخه المتصوفة ،فيمجدهم و يمدحهم"[22]،و مما دلّ على هذا التأثر في رواية الطوفان ما أورده مرتاض في هذا المقطع السردي:" كان الأمير كلّما اختلى إلى نفسه، ولا سيّما في الفَترة الأولى من سجنه كان يَطَّلِبُ مِن أمّ البنين زوجِه، وأمِّه أيضاً، وكانتا أقربَ المقرّبين إليه، أن تَذَرَاهُ وخَلْوَتَهُ لترتيل القرآن العظيم ومُدارسةِ صحيح البخاري -الذي كان وُلَعةً به، فقد كان ختمه تدريساً في تلمسان، بعد معركة تافنة التي انتصر فيها على الكائن الغريب العنيد انتصاراً عظيماً- ومطالعة بعض كتب التصوّف، وخصوصاً كتب ابن عربيّ وأخصّ منها كتابه «الفتوحات المكّيّة» الذي هو خلاصة لجميع كتبه ورسائله، وكان يصطحبه معه في حلّه وتَرحاله، وكان ورِثَه من مكتبة أبيه الشيخ مُحْيِي الدين الحسنيّ في أمّ العساكر الخضراء، وكان مكتوباً بخطّ مغربيّ ملوَّنٍ جميل"[23].

و تنقسم حياة الأمير عبد القادر الصوفية إلى ثلاث مراحل :

---

[21] حوريـة رواق: شـعر الأمـير عبـد القـادر :المضـمون و التشـكيل،مجلة مقاربات،مجلـة فصـلية تصـدر عـن جامعـة زيـان عاشور،الجلفة،مج 4، ع3 ،ص 89.

[22] المرجع نفسه،ص 91.

[23] الرواية،ص 399.

"الأولى:هي المرحلة التي سافر فيها إلى دمشق مع والده ،و أخذ عن علمائها ،و تلقى الطريقة النقشبندية،و الطريقة القادرية التي تلقاها ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري،و بعد ذلك رجع إلى الجزائر ،فأنشأ مراكز في القرى و بين القبائل لنشر الطريقة القادرية ،و كان هؤلاء هم الذين غذوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير بعد ذلك.

الثانية :مرحلة عزلته و خلوته في مدينة أمبواز حين كان سجينا ،و إلى هذا أشار في كتابه المواقف.

الثالثة:هي المرحلة التي تمّ له فيها الترقي الصوفي ،وصل إليها في مجاورته بمكة المكرمة سنة 1279هـ،حيث أقبل على العبادة و الخلوة،و التقى بالشيخ محمد الفاسي الذي أعطاه الطريقة الشاذلية"[24].

و–صورة الأمير المغدور:

لقد تعاظمتْ قوّات مرتزقة الكائن الغريب العنيد وتكاثرتْ، ولم يكن للأمير ثغر بحريّ يتنفّس منه، فحُوصِر في الدَّواخل، وقلَّت الحيلة، وانعدم النصير، وتكاثر الأعداء، واستنجد بِمَن لم يُنْجِدْه، وتنكّر له الأخ الشقيق، مع شدّة إصراره على المقاومة والقتال... ص 372

لقد تأثّر الأميرُ تأثّراً شديداً بعد الذي كان له في معركة مَلْوِيَّةَ التي سالتْ فيها أنهارٌ من دماء الأشِقّاء، إذْ أيقنَ أنّ ظهره لم يعُدْ محميّاً، وأنّه أصبح محاصَراً من جهتين اثنتين لا من جهة واحدة ص 373

اجتمع الأمير مع ضبّاطه وصناديدِ رجاله بأعالي عجرود بقرية شايب راسه إذاً، ثمّ خاطبهم بصوتٍ منكسِر، مشحون بالْمَضاضة والأسى، ومع ذلك كان صاحبُه لا يزال يحاول أن يُعَمِّسَ ما خامَرَه من اضطراب حتّى يبدُوَ صوتُه لأصحابه طبيعيّاً متّزناً:

–أيّهَ الصناديدُ الكُبَراء! يا مَن كتبتم تاريخ المحروسة المحميّة البيضاء بدمائكم طَوال سبعة عشر عاماً. ها نحن أُولاءِ وصلْنا إلى ما وصلْنا! إخوانُنا، من هنا، رفضونا، وأعداؤنا، من هنا، حاصرونا. وفي شمالنا أمواج البحر المتلاطمة ولا سفائنَ لنا، فإلى أين المفَرُّ؟ وأين سبيلُ الْوَزَر؟ أيُّهَ الأصحابُ الأوفياءُ! لعلّي أن لا أكونَ مُحتاجاً إلى أن أواجِهكم بأمرٍ أنتم على علْمٍ به، وما كنت لأُخفيَ عنكم سِرّاً. خابتْ مساعينا، وإن لم تذهبْ تضحياتُنا سُدىً. بذلْنا أنفسَنا دفاعاً عن وطننا، وشرَفِ أهلنا، وما قصّرْنا في مقاومتنا! لكن الكائن الغريب العنيد لم يزل هو، من وِجهةٍ، يتقوَّى علينا، ولم نزل نحن، من وجهة أخرى، نضعُف أمامهُ قليلاً قليلاً، إلى أن انتهَينا إلى الحال التي انتهَينا إليها. أَشيروا عليّ وقد ألَمّ الخطْبُ، وحلّ اليأس، وتفاقم البلاء...

---

[24] نزار أباظة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد ،دار الفكر ،دمشق،سوريا،ط1، 1994م ،ص ص 28 ،29.

–أنت أميرُنا وقائدُنا، فاضرِبْ بنا مِن هنا أو مِن هنا، فلنْ ترى منّا، واللّهِ، إلاّ ما يسرُّك ولا يسوءك، وقد عرفت ذلك منّا قَبْلاً. ص 388 ،389

لقد حاولتُ أن أستنجدَ بالجيران الإخوة، فلم أجِدْ لديهم إلاّ النيران، ومحاصرتي بجيوشهم من نحو الغرْب كلّه. قاتلتُ وقاتل مَن كان معي بشرَف حتّى الرمَقِ الأخير من حياتنا. ولكنّ جيشي أصبح محدود العَدد، قليل الْمَدد، مُثْخَناً بالكِلامِ، مُنْهَكَ القُوَى.400

و–صورة الأمير الأسير:

حاول الأمير عبد القادر بشتى الطرق مواصلة النضال في وجه الاستعمار الغاشم إلا أن غدر الجيران و بعض الأصحاب ،إضافة إلى نقض العدو لكل المعاهدات المبرمة بينهما ،و حفاظا منه على أرواح المناضلين الأشاوس و النساء و الأطفال اضطر للاستسلام ،يقول:" لقد أرسل إليّ العدوّ يؤمّنني على نفسي وأهلي ورفاقي وضبّاطي وأن أذهب بهم إمّا إلى عكّا وإمّا إلى القسطنطينية وإمّا إلى الإسكندريّة... "[25].

لكن غدر الفرنسيين كان أسبق ،حيث رست الباخرة التي تقله و المقربين منه "بمرسى طولون الحربي في 24 محرم 1264هـ /غرة جانفي 1848م،و إذا بحكم طولون يقف أمام الأمير ليقول له:إني مأمور بإنزالك هنا في برج لاملاك الحربي حتى تأتي الأوامر الجديدة من باريس،فتأسف الأمير لهذه الخيانة"[26]. و تيقّن أن فرنسا لا تحترم عهدا و لا وعدا ،و أنه وقع أسيرا عندها.

تصف الأم زينب صورة الأمير في هذه الحالة قائلة: "ظلّ الأمير هنالك يتجرّع في نفسه ذُلَّ الأسْر وظلماتِ السِّجن، وغَبْنَ الخديعة، وحُرْقَة الغدْر، وإن لم يصرّح بذلك لأحدٍ من أهله قَطّ، مخافةَ أن يَهُورَ معنويّاتِهِم، أو يَبْدُوَ أَمامَهم بمظهر الضعف والاستخذاء. بَيْدَ أنّ الأمير لم يستطع أن يُخْفِيَ تلك المستنقعاتِ الكَدِرةَ التي كانت تتخبّط في قَعْرَتِها نفسُه الأبيّة؛ فكان ذلك يبدو في وَجَبَانِ قلبه الذي كان يكابد حُزْناً دفينا، وهَمّاً ثقيلاً. كما كان ذلك يبدو على ذبذباتِ صوتِه الصَّحِلِ التي كانت تُحِيلُ صحَلَهُ الجميلَ إلى صوتٍ آخرَ لم تألَفْه منه أمُّ البنين، ولا أبناؤُه، ولا أمُّهُ التي صاحبتْه إلى مأْسِرِه، هي أيضاً، قَبْلاً"[27].

و نظرا للحالة النفسية المتأزمة التي عاشها الأمير في الأسر ،و التي حاول إخفاءها على المقربين منه ،إلا أن أم البنين تشعر بكل ما يعتصر قلبه،و قد حاولت التخفيف عنه قائلة:" أيّها البطل العظيم، إنّك ستظلّ أبداً بطَلاً

---

[25] الرواية،ص 390.

[26] يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،ط3، 1983م،ص 68.

[27] الرواية،ص 397.

رمْزاً. ولا ريب في أنّ بني جِلدتك سيخلّدونك بالتماثيل الْمُقامة في السّاحِ الكُبرى، وسيُقِيمون لك التكريماتِ العظمى، كما سيكرّمك تاريخُ الْمُقاومات الوطنيّة، عبر التاريخ، حتماً. فلستَ، يا أميري، كأحدٍ من الرجال، ولا حتّى كأحَدٍ من الأُمراء! "[28].

صورة الأمير الإنسان:

بعد أن عفا نابليون الثالث عن الأمير عبد القادر،و أطلق سراحه من سجن أمبواز،سافر إلى بروسة و القسطنطينية ،ثم سكن دمشق،و عند اندلاع شرارة الفتنة[29] فيها،بذل الأمير عبد القادر قصارى جهده لإخمادها،و "بقي أربعة عشر يوما متوالية لم يفتر فيها لحظة عن نصرة المظلومين ،و إنقاذهم من القتل ،و أشرف على تطبيب الجرحى ،و قام على تعزية الثكالى و الأرامل و اليتامى ...و بلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من القتل و العذاب ممن التجؤوا إلى داره نحوا من خمسة عشر ألف شخص من القناصل و أعيان النصارى و الرهبان و الراهبات"[30].

هذا ما أكدته الراوية أم زينب في رواية الخلاص قائلة: "لقد برهن الأمير بسلوكه الإنسانيّ العظيم في دمشق وسائر بلاد الشام في إنقاذ النصارى من الذّبْح، على أنّ قتاله الكائنَ الغريب العنيد، في المحروسة المحميّة البيضاء، لم يكن بدوافعَ دِينيّةٍ خالصةٍ، ولكنّه كان بدوافعَ وطنيّةٍ مَحْضَةٍ، أي من موقع الإحساس بالغَيرة على حُرْمة الوطن وسيادته وكرامته ومكانته، أساساً. ولو كان الأمر كذلك حقّاً، لظلّ الأمير يحقد على كلّ من يعتنق الديانة النصرانيّة. لقد أظهر الأمير أنّه إنسان كبير راقٍ متسامحٌ حقّاً. ولا يكون الإنسان إنساناً حتّى يعامل البشرَ على أنّهم من بني آدم أوّلاً، ثمّ تأتي تفاصيل الأشياء الأخرى كالعقيدة الدينيّة واللسانِ والْمَحْتِد واللّون وسَوائِها، وهي تفاصيل ثانويّة، بعد القيمة الجوهريّة التي كرّم اللّه بها الإنسان، وهي إنسانيّته التي يشترك البشرُ فيها جميعاً. وليست إنسانيّةُ الإنسانِ إلاّ العطف والبِرَّ والتسامح والمحبّة. وذلك ما برهن عليه الأميرُ الإنسانُ، بعد أن كان الأميرَ القائد"[31] .

---

[28] الرواية،ص ص 402 ،403.

[29] اندلعت يوم الاثنين 20ذي الحجة 1276هـ الموافق :9 جويلية 1860م.

[30] نزار أباظة: الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد ، ص 17.

[31] الرواية،ص 426.

إنّ الموقف الإنسانيّ للأمير عبد القادر في فتنة الشام جعله يرتقي إلى أعلى المراتب و أسماها ،و هذا ما جعل الدول الأوروبية تمنحه الأوسمة الفخرية و كلها من المرتبة الأولى،كما تنافس الشعراء في نظم قصائد تمدحه فيها و تشيد بموقفه الإنساني النبيل.